3 المسلمون والغزو الأوروبي لمنطقة سانجامبيا

من الحركات الإسلامية التي لعبت دورا كبيرا في مقاومة الوثنيين في منطقة سانجامبيا تلك الحركة التي قادها شيخ من شعب السراكولا يدعى محمد الأمين، ذلك الشيخ الذي حاول استعادة مكانة هذا الشعب أيام إمبراطورية غانا الإسلامية، بالإضافة إلى محاولاته من أجل نشر الدين الإسلامي بين سكان تلك المنطقة من غرب أفريقيا.

ويحتل جهاد الشيخ محمد الأمين مكانة خاصة تختلف إلى حد كبير عن حركات الجهاد التي أعلنها زعماء الإسلام في السودان الغربي أمثال: الحاج عمر الفوتي، أو الشيخ عثمان بن فودي، أو أحمدو لوبو، أو محمد أحمد المهدي في السودان.

لقد كان جهاد الشيخ محمد الأمين قصيرا في مداه، عميقا في مغزاه، قويا في أثره، عنيفا في تنفيذ أهدافه. حيث اتسم جهاده بالعنف والصلابة، وقوة الإصرار على متابعة جهاده رغم وقوف الأعداء له بالمرصاد. لذا كان جهاده من نوع خاص وفي فترة قصيرة لم تتجاوز العامين، ووسط ظروف بالغة القسوة، والعدو يتربص به، والقوى المحلية تحيك

حوله المؤامرات، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل، وحمل السيف، وأعلن الجهاد لنشر الدعوة رغم صعوبة الظروف، وتحدى كل من وقف في طريقه من القوى المحلية والخارجية، وأجبر عددا كبيرا من الوثنيين على الدخول في طاعته، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة وجدت فيه مجسدا لآمالهم، ومحققا لأهدافهم، وباعثا لشعب السراكولا الذي صار تابعا للتورودوب، فكانت حركته قومية إسلامية جهادية، وصار بطلا قوميا لشعب السراكولا ضد السيادة الوطنية، وضد الحكم الفرنسي الأجنبي، وقاوم الشيخ القوى المحلية، والتوسع الفرنسي حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذي كرس له حياته إلى أن لقي الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامي فكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين حتى أنه اشتهر بالشيخ المحارب. ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتا طويلا إلا أن الأثر الذي تركاه كان عميقا ليس فقط في تاريخ هذه المنطقة، بل في غرب أفريقيا بشكل عام [1].

وسوف ندرس جهاد هذا الشيخ ودوره في مقاومة التوسع والحكم الفرنسي في منطقة سانجامبيا بغرب أفريقيا.

أولا: نشأة الشيخ محمد الأمين

ولد مالامين دمبا ديباسي الذي عرف فيما بعد باسم محمد الأمين في حوالي عام 1840 في قرية جونديورو (Gundiuru) التي تعد من مراكز الدراسات الإسلامية، والتي تقع على بعد عدة أميال جنوب مادينا (Madina) عاصمة كاسو (Khasso)[2].

وكان والده من المرابطين الذين يقومون بالوعظ والإرشاد، وتطبيق الشريعة الإسلامية في هذه القرية بالإضافة إلى عمله كقاض في هذه المنطقة، وتلقى الأمين مبادئ الدين الإسلامي على أيدي والده في بعض المراكز في سانجامبيا وخصوصا في فوتاتورو. وفي سنواته الأولى انتقل مع الأسرة إلى قرية سافالو (Safalu) في إقليم بوندو، وذهب الأمين إلى باكل (Bakel) حيث دفعته روح المغامرة إلى الاشتراك في حملة ضد جامون (Gamon)، لكنه وقع أسيرا مع والدته التي ماتت في هذا الأسر. وحاول والده إنقاذه دون جدوى، فقبض عليه، ووضع في السجن. وهناك لقي

معاملة قاسية تمثلت في الجلد عدة مرات مثل غيره من المسجونين. ومنذ ذلك التاريخ حمل الأمين حقدا دفينا ضد قرية جامون لم يفارقه طوال حياته [1].

بعد أن خرج الأمين من الأسر واصل دراساته الإسلامية في مدينة باكل على أيدي عدد من الشيوخ الذين بلغوا شهرة واسعة في هذه العلوم الإسلامية، وقد استفاد الشيخ الأمين من إقامته في باكل حيث إنه التقى بالمجاهد الكبير الحاج عمر الفوتي التكروري زعيم التيجانية في المنطقة، فتأثر به واقتفى آثاره، بل انضم إلى جيشه من أجل إعلان الجهاد [2].

لكن هذا الرأي غير صحيح لأن الحاج عمر كان قد أعلن جهاده ضد قبائل البمبارا في الوقت الذي كان الشيخ الأمين قد غادر باكل إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، كما أن خطاباته لم تشر إلى قيامه بمثل هذه المشاركة في حملات الجهاد مع الحاج عمر[3].

ترك الأمين مدينة باكل في منتصف الخمسينات في طريقه إلى الحجاز، وكان قد بلغ الحادية والعشرين. وأثناء إقامته في مكة درس المزيد من العلوم الإسلامية، وتعمق في الدراسات والمذاهب الفقهية، ولم يتحدد طول المدة التي قضاها في البلاد المقدسة، لكنه على أي حال عاد إلى سيجو عاصمة أتباع الحاج عمر الفوتي في عام 1880، واختلفت الآراء حول إقامته طوال هذه الفترة في مكة، بل ادعى البعض أنه زار مصر والقسطنطينية أثناء عودته إلى بلاده. ولكن مهما اختلفت التفسيرات فإن الشيخ الأمين قضى فترة طويلة خارج بلاده، وطاف بالبلدان التي مر عليها في طريق عودته وانتهى به المقام حيث إمبراطورية التوكولور التي سيكون فيها جهاده وستكون قاعدة الدولة التي فكر في إنشائها.

كان الأمين قد تنقل بين عدد من الدول والبلدان أثناء أسفاره في الذهاب والإياب لرحلة الحج، وحاول عدد منهم الاستفادة من عمله كرجل دين، ومن ثقافته الواسعة، لكنه أبى البقاء والاستقرار في أي دولة، وكان دائما يردد أنه لا بد من العودة لأن الله قد كلفه بمهمة شاقة وعليه القيام بها [1].

كان الهدف من هذه الرسالة أن يستعيد شعب السراكولا مكانته السياسية بين جيرانه، لكن هذا الهدف لن يتحقق، ولن يتم بعث إمبراطورية السراكولا في غانا القديمة إلا إذا تم طرد الحكام الأجانب. وبعبارة أخرى وضع

الحاج الأمين نصب عينيه مقاومة كل من التوكولور والوجود الفرنسي الأجنبي، وهي مهمة صعبة التنفيذ، بعيدة المنال لأنه سيحارب ضد القوى المحلية وضد إمبراطورية الشيخ أحمدو بن عمر التكروري، وضد الفرنسيين الذين استقروا وطاب لهم المقام في المنطقة. ومن هنا تكمن عظمة جهاد الشيخ الأمين و خطورته [2].

لقد شاهد الأمين وهو في صباه إمبراطورية التوكولور، وصراع الحاج عمر ضد التوسع الفرنسي في المنطقة من أجل السيطرة على سانجامبيا في الفترة من عام 1857 حتى عام 1860، وكان شعب السراكولا قد شارك في هذه الحروب ضد سيادة التوكولور، وكانت هذه الفترة ماثلة أمامه، فاستعاد الذكريات وخصوصا العنف الذي واجهه من حكم التوكولور الذين حبسوه حوالي سبع سنوات في سيجو. وعندما أطلق سراحه وعاد إلى بلاده عام 1885 صمم على أن ينشئ إمبراطورية من السراكولا، ويكون خليفة لإمبراطورية التوكولور. وفي هذا المقام اتفقت آراؤه، وتشابهت أفكاره مع شعب السراكولا الذي كان قد عزم النية على محاربة الفرنسيين ومقاومة التوسع الأوروبي. وعلى هذا لم تكن حركة الحاج محمد الأمين رد فعل سلبي للاحتلال الفرنسي، بل كانت في الأصل تعبيرا عن قومية سراكولية اتخذت من الإسلام وشريعته الغراء هدفا أسمى لها، ووجدت هذه الآمال في شخصية الشيخ الأمين الأمل المنشود لتحقيق ما تتطلع إليه جماهير السراكولا في غرب أفريقيا، فتوافد عليه الناس جماعات ووحداناً وانضموا إليه يشدون أزره، ويقفون إلى جانبه، ويبذلون الغالي والنفيس في سبيل تحقيق الأمجاد القومية أولا، ونشر الدين الإسلامي ثانيا، ثم الوقوف والجهاد ضد التوسع الفرنسي ثالثا [1]. وقبل أن يعلن الشيخ الأمين جهاده انتشرت الأخبار عن حكمته، وأنه قادر على القيام ببعض المعجزات بالإضافة إلى زعامته الدينية وتأثره بالطريقة السنوسية [2].

واختلفت الآراء حول مدى تأثر الشيخ الأمين بالطريقة السنوسية حيث يرى ويليس (Willis) أن النفوذ الوهابي كان قويا على حركات الجهاد في غرب أفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأن أثر الحجاج كان قويا في نشر هذا المذهب الوهابي في النصف الثاني، وأنه من المحتمل أن يكون الشيخ الأمين قد تشرب الكثير من مبادئ الوهابية سواء بشكل

مباشر أثناء إقامته في مكة، أو بشكل غير مباشر من الوسطاء والتجار الذين نقلوا الكثير من الفكر الوهابي إلى غرب أفريقيا [3]، وهذه قضية لا تزال تثير جدلا كبيرا حول هذا الدور الوهابي.

ويوضح نيقولا زيادة أن الشيخ محمد الأمين لم يكن سنوسيا، بل إنه تأثر بالطريقة التيجانية لأن كل مراسلاته ونشاطه الديني لم يكشف النقاب عن أي أثر سنوسي، كما أنه لم يتأثر بالدعوة المهدية التي ظهرت في سودان وادي النيل لأنه سافر إلى مكة قبل أن يعلن محمد أحمد المهدي عن دعوته في مارس 1881[1].

ومهما اختلفت الآراء بين المؤرخين حول اتباع الشيخ محمد الأمين الطريقة الوهابية أو السنوسية أو التيجانية في النهاية، فإن الذي لا شك فيه أن هذا الشيخ قد وضع نصب عينيه هدفا واحدا هو تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعلان الجهاد ضد القوى الوثنية في المنطقة على أمل إحياء مجد السراكولا القديم. ولذا فإنه عندما وصل إلى كاسو عام 1885 أعلن النية ببدء الجهاد في سبيل الله، وفي وقت كانت التيجانية قد تغيرت صورتها بشكل واضح، وتوقف جهادها ضد الوثنيين، وانشغلت في صراعاتها الداخلية بين أحمدو الشيخ بن الحاج عمر والوجود الفرنسي، بل توجه المجهود العسكري ضد أبناء الحاج عمر نفسه، ولذا لم يكن غريبا أن تضيع الجهود، وتتفتت قوى المجاهدين في سبيل الله بعد أن تحول التوكولور إلى طبقة حاكمة فرضت نفسها على بقية شعوب المنطقة، وأخضعت شعب السراكولا، كمجرد رعايا، تحت سلطانها. فكان هدف الأمين هو التخلص من هذه الحالة، وهو الأمر الذي جعل الشيخ أحمدو يرقب حركاته وتحركاته، ويوصد جولاته وحملاته، ويقف أمام كل طموحاته. فكان الصراع المحتوم بين تلك القوى الوطنية في وقت كانت أشد ما تكون تكاتفا وترابطا أمام الفرنسيين أعداء الشريعة والدين. كان الشيخ الأمين قد حجز في سالوم (Salum) تحت رقابة الشيخ أحمدو، وفي هذه الفترة عكف الشيخ على دراسة إمكانية القيام بالثورة ضد الطبقة الحاكمة من التورودوب، وتأسيس مجتمع ديني لنفسه. واتضح له بعد الدراسة المتأنية، والاحتمالات المتعددة أنه لا يمكن تحقيق هذا المجتمع الديني وسط هذا المجتمع التوكولوري من دون أن يكون له حلفاء يعاونونه في تنفيذ خطته، فانتظر حتى يحين الوقت

لمغادرة سالوم، وحتى يبتعد عن الإشراف الدقيق، والمراقبة المباشرة للشيخ أحمدو. واستغل هذه الفترة في تجنيد التجار من جماعات الديولا والسراكولا حيث استخدمهم كمبعوثين إلى دويلات وممالك الكاميرا، والجيوديماكا، والجوى، والدافانو، وبوندو. وأدّى هذا العمل إلى ازدياد شهرته وكثرة الأعوان الذين صاروا على استعداد لأن يكونوا عدته وعتاده في سبيل نشر الدين بين الوثنيين [1].

ثانيا: تأسيس دولة الأمين

في أواخر عام 1884 غادر السلطان أحمدو شيخو عاصمته سيجو وذهب إلى منطقة كارتا للقضاء على أعمال التمرد والعصيان التي قادها أخوه محمد مونتجا، كما قرر السلطان نقل العاصمة إلى نيورو [2] (Nioro). انتهز الشيخ الأمين هذه الفرصة وهرب من سجنه استعدادا للمهمات التي سيقوم بها في المستقبل، وواصل الأمين سيره حتى وصل إلى القلعة الفرنسية في باماكو في أوائل يونيو عام 1885. وساد الاعتقاد في ذلك الوقت أن الأمين ينوي إعلان الجهاد وتأسيس دولة السراكولا [3].

وكان ضباط الأحياء الفرنسية قد سمعوا بعد رحيله من سيجو أن مرابطا مشهورا يدعى الحاج محمد الأمين يرغب في العودة إلى كاسو، وأنه يكره السلطان أحمدو وينوي القيام بحرب ضده، وأنه يعتزم إعلان الجهاد بين السراكولا في نيامينا (Nyamina) والبمبارا في فادوجو (Fadugo)، وكان هذا الإعلان عن العداء بين الشيخ المرابط والسلطان أحمدو سببا في أن يجد الأمين حفاوة وترحيبا من جانب الفرنسيين عندما ظهر في باماكو، وسمحوا له بالتحرك والتجول بحرية تامة في مناطق السيطرة الفرنسية [1].

واصل الشيخ رحلته على طول الحصون الفرنسية دون أي معوقات، وكانت أسرته ترافقه جنبا إلى جنب مع عدد من الأتباع المخلصين حتى استقر به المقام في مدينة جونديورو (Gundiuru) في أوائل يوليو عام 1885، وفي هذا المكان توافد الناس عليه، وقدمت الوفود حاملة الهدايا والمتاع، وأقبل الناس تشوقا إليه، وتطلعا إلى رجل الجهاد الذي سيخلصهم من أسر التوكولور ومن السيطرة الأجنبية، وذاعت شهرة الشيخ بين المثقفين والعامة،

وأظهر له سامبالا (Sambala) حاكم مدينة كاسو كل مظاهر الود والاحترام الحقيقيين طوال إقامته في تلك المنطقة.

ظل الأمين حوالي شهرين في جونديورو اطلع فيهما على الأحوال السياسية والأوضاع الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية التي حلت بالمنطقة منذ رحيله إلى مكة لأداء فريضة الحج منذ ثلاثين عاما مضت، وأعلن الشيخ منذ بداية جهاده أنه لا يكنّ للفرنسيين أي عداء، وأن عدوه الأول هو السلطان أحمدو، وأنه ينوي غرس السلام والمحبة والعدل، وإعلان الجهاد في سبيل الله بين الأقوام الوثنية.

وبعد أن ذاع صيته، وكثر عدد أتباعه وتلاميذه، أرسل البعوث إلى مختلف المناطق لإعلان الولاء وللانضواء تحت راية الجهاد، فتغيرت الأوضاع، وبدأت الاستعدادات الدبلوماسية والعسكرية، وأمكن الحصول على السلاح من الفرنسيين ومن التجار على الساحل. أعلن الشيخ الجهاد وحمل لقب الخليفة، بل لقبه بعض الأتباع بالمهدي الذي جاء ليحرر شعبه وأرضه من عبودية الأقوام الآخرين، وحاول الشيخ الأمين إقامة علاقات ودية مع جيرانه في فوتاتورو وبوندو، كما أقام علاقات طيبة مع عبد الله أبو بكر إمام بوسيبيا وفوتاتورو، كما دعاه إلى الانضمام إليه في حربه المقدسة [1].

ورغم أن الشيخ عبد الله أبكر لم يوافق الأمين، ولم يعلن الانضمام إلى حركته، لكنه عامله كصديق وكجار له، ولم يحاول معاداته. وفي الوقت نفسه حاول الأمين إقامة جسور المحبة والود مع الفرنسيين مثل الحاج عمر تماما، وذلك لكي يصرف أبصارهم بعيدا عنه، وحتى لا تتحول القوات الفرنسية إلى عداء لحركته، فتجهض أفكارها قبل قيامها، وإظهارا لحسن النية الصادقة مع الفرنسيين عرض الأمين إرسال بعثة إلى الحاكم الفرنسي إلى مدينة سانت لويس لشرح قضيته، وأنه لا يكن العداء للفرنسيين، وأن هدفه الرئيس هو إعلان الجهاد ضد الوثنيين وضد الشيخ أحمدو، ونجح الأمين في هذه الحركة الدبلوماسية التي خدعت الفرنسيين حينا من الوقت جمع فيه رجاله، وكوّن جيشه، وزوده بالسلاح استعدادا للحرب على الجميع، واستطاع الأمين مع نهاية عام 1885 أن يصل بعدد جيشه إلى حوالي مائتين وخمسين رجلا في قرية جونديورو. وعندما ساور الشك الفرنسيين حول نشاطه المتزايد، وأتباعه الذين ينضمون إليه يوما بعد يوم، وأعلن أن نيته


المغاربة
المحيط الأطلسى
فوتا تورو
دويلات الماندنجو
الولوف
السرير
صانجامبيا فى منتصف القرن التاسع عشر

شكل رقم (9)

هي إعلان الجهاد ضد قرية جامون (Gamon) التي يكن سكانها العداء له منذ زمن طويل، وطلب الأمين من الميجور هوري (Howry) السماح له بتنفيذ هذه الحملة، لكن هذا القائد الفرنسي العام لأعالي نهر السنغال عبر له عن دهشته، فكيف يعطيه إذنا رسميا للحرب ضد قرية ما في الوقت الذي يجمع فيه الرجال، ويجهزهم بالأسلحة دون ترخيص سابق من سامبالا حاكم المنطقة؟ وطلب الحاكم الفرنسي من الشيخ الأمين إذا رغب في إعلان حرب الجهاد، فعليه أن يعلنها بعيدا عن مناطق النفوذ الفرنسي. فكان هذا بداية القطيعة، وإحساس الشيخ أن الفرنسيين لن ينخدعوا بدبلوماسيته، وأنه لا بد من أن يحتك بهم إن طال الزمن أو قصر، لكنهم الجانب الأقوى الذي لا يمكن مواجهته في بداية جهاده، وكان عليه أن يهادنهم إلى حين [1].

وكان جهاد الشيخ الأمين يسير على نفس هدى حركات الجهاد التي قادها زعماء مسلمون في السودان الغربي وعلى رأسهم الشيخ عثمان بن فودي، وأحمدو لوبو، والحاج عمر الفوتي، ولكن الاختلاف الوحيد هو أن الشيخ الأمين خالف المفهوم الإسلامي حينما طلب من الفرنسيين السماح له بالقيام بالجهاد، وهو أمر لا يجوز لزعيم إسلامي أن يحصل فيه على موافقة قوى وثنية أو مسيحية لإعلان جهاد أمر به المولى سبحانه وتعالى. لكن إذا استعرضنا الظروف وحللنا المواقف نجد أن للشيخ عذره في هذا المطلب لأنه لا يمكن وهو في أول حياته أن يعلن حربا على دولة أجنبية مسلحة بأحدث ما وصل إليه التطور العسكري، وهو رجل أعزل يحاول جمع الرجال ويحصل لهم على السلاح، وبإعلانه الحرب ضدهم يعني وأد حركته قبل أن ترى النور. فكانت دبلوماسيته معهم ومحاولاته الاستئذان منهم حتى لا يتورط في مشكلات قد تجلب عليه مصائب لا تحمد عقباها.

واستطاع الشيخ الأمين أن يسيطر على حركة تمرد قامت ضده في منطقة كارتا، وبعد ذلك العمل أخذ يخطط لحركة كبرى ضد السراكولا في منطقة جيوديماكا (Guidimaka)، وديافونو (Diafounou)، وفي كلتا المنطقتين أعلن شعب السراكولا قبول حكم الشيخ الأمين [2].

وواصل الأمين حملات الجهاد ضد الوثنيين في جامون، وقابل القائد الفرنسي الجديد ويدعى فري (Frey) في كايز (Kayes) وأعلن له الإخلاص

وللفرنسيين، وأنكر بكل غضب حماقة أعدائه الذين لا يريدون إلا الوقيعة بينه وبين الفرنسيين، كما شرح له الشيخ أن نيته الجهاد ضد الوثنيين في كامون، بل ضد بعض المناطق التجارية في جامبيا البريطانية، كما وعد الشيخ بعدم القيام بأي عمل دون إخطار السلطات الفرنسية [1].

وواضح من اللقاء مع فري أن الشيخ الأمين كان دبلوماسيا إلى أبعد الحدود. فإثارة العداء ضد السلطان أحمدو كان مناورة بارعة. كما أن إعلانه عن عدم القيام بأي عمل دون الرجوع إليهم جعل الجانب الفرنسي يطمئن للرجل ولسياسته التي تخدم مصالحهم. كما أن الشيخ الأمين أظهر عبقرية خارقة حينما عزف على الأوتار الحساسة في سياسة العداء بين فرنسا وإنجلترا، وإعلانه عن أنه سيشن حرب الجهاد ضد البريطانيين في جامبيا. وهي لعبة بارعة، وحيلة ذكية من شيخ مخضرم عرف كيف يسوس الأعداء، ويصرفهم عنه فترة من الزمان ازدادت فيها أواصر المحبة معهم لدرجة أن فرى أعطى الأمين سيفا كرمز للصداقة في هذا اللقاء، كما كتب فري إلى كل الحكام الفرنسيين في المنطقة يطلب منهم حسن استقبال الشيخ الأمين [2].

وأعلن الأمين للكولونيل فري عن تضايقه من سيادة التوكولور، كما أعرب عن سياسته وخدماته لتقديم قوات للفرنسيين في حملاتهم ضد السلطان أحمدو. لكن القائد فري خشي من التورط قي هذه العروض المغرية [3].

سمح فري للشيخ الأمين بالتجول في مناطق النفوذ الفرنسي بحيث لا تزيد قوة أتباعه عن خمسين رجلا مسلحا. وأثمر لقاء الأمين بالقائد فري عن شبه اتفاق واعتراف الفرنسيين بمحمد الأمين كحليف لهم ضد السلطان أحمدو شيخو، لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى خدماته لا تلك الفترة لانشغالهم بالحرب ضد مجاهد آخر يدعى ساموري توري.

وإذا كان الفرنسيون قد انخدعوا بتلك الدبلوماسية البارعة للشيخ الأمين إلا أنه فسر هذا اللقاء مع فري بصورة تختلف عما دار في مخيلة الفرنسيين لأنه أصبح لديه اعتقاد جازم بأنه لا بد من أن يدخل في حرب ضد الفرنسيين بعد نجاح جهاده ضد الوثنيين، وأن هدية السيف التي أخذها وخطاب التوصية للحكام ما هما إلا وسيلة لصرف النظر عن تحركاته، وفرصة

لتكوين جيشه، ووسيلة لجمع المزيد من الأتباع حوله، وفي نظره أن هذا اللقاء كان مثمرا لحركته حيث جعل منه قائدا أعلى للسراكولا، وحليفا للفرنسيين ضد أعدائهم من التوكولور.

كانت حملة الشيخ الأمين موجهة في المقام الأول ضد الوثنيين في جامون، وكان هدف الشيخ من هذه الحملة أن يظهر في نظر شعبه كقائد أعلى للجهاد، ولتكون تجربة عملية يدرب رجاله على الحرب المكشوفة استعدادا لمعارك أخرى قادمة، كما كان الهدف من هذه الحملة الحصول على الأسلاب والمعدات التي يحتاج إليها في المستقبل، وفوق كل هذه الأهداف كان الأمين يسعى لأن يكون الاستيلاء على منطقتي جامون وتندا (Tenda) نواة الدولة الإسلامية العسكرية [1].

كان فري قد أشار إلى أنه منع الشيخ من إعلان الحرب ضد جامون، لكن قواد السراكولا أعلنوا أن فري قد سمح للشيخ بالجهاد ضد هذه المنطقة، ولكن بشرط الابتعاد عن خطوط التلغراف الفرنسية [2].

ومع بداية شهر ديسمبر 1885 قام الأمين بعمل الدعاية اللازمة للاتجاه غربا وساعده فري بأن طلب من ضباط الأحياء تسهيل مهمته في السفر لأنه رجل مسالم، ولكنه في نفس الوقت أوصى بمراقبة تحركاته بكل حرص [3]. وتجول الشيخ في قرى كاميرا (Kamera) واخترق المنطقة إلى فوتاتورو إلى أن وصل إلى قرية جوميل (Gumel) في مديرية دمجا (Damga)، وبدأ الشيخ بجمع الضرائب من الناس، وينادي بحرب الجهاد ضد الوثنيين في جامون وتندا، وطالب كل قرية بإعداد فرقة مسلحة تكون على استعداد للاستجابة لأوامره، وواجه الشيخ بعض المصاعب لأن قائد منطقة باكل أرسل إليه ما يفيد أن تحركاته تخالف التعاليم التي وصلت إليه. وكان جواب الشيخ بأنه لن يمنع الناس من السير خلفه أو الانضمام إليه [1].

لكن رغم كل المعوقات التي وضعت في طريقه استطاع الشيخ الأمين الوصول إلى بالو (Balu)، وهي عبارة عن قرية مجاورة لجوي(Guoy) قرب التقاء نهر فاليم (Faleme) بالسنغال. وفي هذا المكان بدأ وضع لبنات مقره الرئيس [2].

وفي خلال ستة أشهر ذاع صيت الشيخ بعد أن كان شيخا غير معروف حيث عاد حديثا من غربة امتدت ثلاثين عاما، لكنه بعد قليل صار القائد

المحلي لأغلبية شعب السراكولا، ولعل السبب في ذلك إنما يعود إلى فصاحته ولباقته وقدرته على جذب الأتباع والأعوان بسرعة، هذا إلى جانب ما أشيع عن كراماته ومعجزاته، وبأنه المهدي المنتظر. إلا أن الشيخ نضب نفسه أميرا للمؤمنين وسلطانا للمسلمين، المجدد لنهج السنة القويم، الراعي لشريعة الإسلام.

ورغم أن دعوة الشيخ الأمين كانت لتجديد الشريعة الإسلامية إلا أن دعوته اتخذت طابعا قوميا اقتصر على شعب السراكولا، ورغم أن الأمين كان يبني إمبراطوريته على حساب الفرنسيين والتوكولور إلا أن كلا منهما لم يكن في موقف عسكري يساعده على مواجهة نشاط الشيخ بشكل فعّال، حيث كان السلطان أحمدو مشغولا بإخضاع أعمال التمرد في منطقة كارتا منذ عام 1884، ولم يكن لديه من القوات ما يساعده على الدخول في معركة عسكرية ضد الشيخ الأمين. أما بالنسبة للفرنسيين فإن القوة الموجودة لديهم لم تكن كافية لحماية مصالحهم التجارية. ولذا كانت التعليمات لدى القائد الفرنسي في السنغال عدم الدخول في صراعات عسكرية لا تستطيع ميزانيته تغطية نفقاتها، وكانت كل هذه الظروف في صالح الشيخ الأمين، وهو الأمر الذي ساعده على بناء دولته، وتوسيع نطاقها [1].

وساعد الأمين على تقوية نفوذه في هذه الفترة عاملين رئيسين:

الأول: هو أن فرنسا قد اضطرت إلى إرسال قوات إلى منطقة النيجر لمواجهة جهاد الإمام ساموري توري، وكان فري يرغب في أن ترسل إليه مدينة سانت لويس قوة لحماية باكل خلال غيابه في النيجر، لكن هذه القوة لم تصل في الوقت المناسب لأن نهر السنغال لم يكن صالحا للملاحة في تلك الفترة. وكان تعطيل إرسال القوات في صالح الشيخ الأمين.

والثاني: انهيار الموقف السياسي في منطقة السنغال الأعلى بعد موت إمام بوندو (Bondu) ويدعى أبا بكر سعدا في 18 ديسمبر 1885، وخلفه أخوه عمر سعدا ذلك الرجل المسن الذي بلغ من الكبر عتيا، والذي وجد معارضة قوية من عثمان جايسي الابن الأكبر لأبي بكر سعدا، وكان تأزم هذا الموقف في بوندو لم يعد يشكل خطرا سياسيا في حوض السنغال الأعلى [2].

وبمجرد أن علم الشيخ بانتخاب عمر سعدا في الخامس من يناير حتى أرسل إليه مبعوثين يطلب منه السماح لقواته بالمرور في بوندو للاتجاه نحو

جامون، وكانت إجابة عمر سعدا غير واضحة في البداية، ولكن مع إصرار الشيخ على المرور رفض عمر سعدا الطلب وأعلن أنه سيواجه قوات الشيخ بكل حزم وقوة [3]. وفي شهر يناير ازدادت قوة الشيخ الأمين حيث وصلت حوالي ألفين من الرجال المسلمين الذين توافدوا عليه من مختلف مناطق السراكولا. وكانت هذه التعبئة في حد ذاتها عاملا حاسما في معارك الشيخ الأمين، واضطر عمر سعدا إلى التحرك إلى جابو (Gabu) حتى يكون قريبا من باكل.

وطلب عمر سعدا النصح والمشورة من حلفائه الفرنسيين، وفعلا ساند قائد منطقة باكل الفرنسي الإمام عمر سعدا بأن أصدر أمرا للشيخ الأمين بمغادرة المنطقة الفرنسية في 15 يناير 1886، كما طلب من سكان المناطق المجاورة لجوي (Guoy) بالعودة إلى قراهم [1].

واضطر الشيخ الأمين إلى مغادرة المنطقة جنوبا في اتجاه سونوديبو (Senudebu) وعبر الأمين حدود بوندو. وفي أول فبراير أرسل طلبا إلى عمر سعدا ليسمح له بالمرور، ولكنه رفض ثانية فحدث أول اشتباك بين قوات الشيخ الأمين وقوات عمر سعدا قرب قرية ديامويلي (Diamweli)، وانهزمت قوات الشيخ الذي اضطر إلى التقهقر عن طريق بوليبان (Bulebane) إلى باكل، ومن هناك اتجه إلى دمجا. وبعد قتال عنيف سقطت بوليبان في أيدي قوات الأمين. وكانت هذه فترة حاسمة في كل مستقبل، وخطط الشيخ الأمين حيث دارت مفاوضات بين عثمان جاسي أحد الحكام المحليين والشيخ، ووافق عمر سعدا على السماح لقوات الأمين بالعبور في بوندو. وكان الشيخ يتجنب الصراع المسلح مع أي قوة محلية أو خارجية حتى لا يرهق رجاله في حروب تبعده عن هدفه الأساسي وهو بناء دولته، وإعلان الجهاد المسلح ضد الوثنيين في منطقة جامون [2].

لكن الشيخ اضطر إلى إعلان الحرب ضد عمر سعدا بعد أن سمح لقوات الشيخ بالعبور في بوندو، وما أن عبرت القوات الإسلامية حتى هاجمها سلطان بوندو بعد ثلاثة أيام وأجبرها على الانسحاب [3]، فكانت هذه الواقعة سبباً في جعل الحرب من الأمور الحتمية بين الأمين والإمام عمر سعدا، ولقد أوضح الشيخ في كل مراسلاته أنه لم يبدأ بالعدوان، وأن عمر سعدا هو الذي أطلق الشرارة الأولى في هذه الحرب [1].

اعتبر الشيخ الأمين أن جماعات السيسي (Sisibe) هم ألد أعدائه لأنهم يعارضون دعوته وجهوده الإصلاحية لنشر العقيدة، ونظرا إلى أن رفض حاكم مسلم السماح لجيش المؤمنين وهم في طريقهم إلى الجهاد عبور أراضيه إنما هو عمل لا يقل عن الذين يتركون القيم والمثل الإسلامية، ولذا فإن إعلان الجهاد ضدهم واجب مشروع.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في جهاد الشيخ الأمين ضد القوى المحلية حيث تخلى الشيخ عن حملات الجهاد والحرب ضد جامون، واتجه نحو بوندو التي عارضت تقدمه واعتبرها نواة لدولة السراكولا، حيث كان عدد كبير من سكان التورودوب قد هجر المدن والقرى، فأخذ الأمين يضع مكانهم شعب السراكولا، وفي الوقت نفسه اندفع عدد من المحاربين إلى معسكرات الشيخ يعلنون الولاء والتبعية لقائد المسلمين، ومنقذ شعب السراكولا من طغيان التوكولور والفرنسيين. وأدت كل هذه الجهود إلى زيادة عدد أفراد جيش الشيخ، فوصل إلى حوالي خمسة آلاف رجل. ومع هذا الحماس الديني الكبير طالب سكان مدينة جيوديماكا بإعلان الحرب على السلطان أحمدو، لكن الشيخ الأمين شعر أن قواته ليست من القوة بالقدر الذي يجعلها تخوض تجربة الحرب ضد أحمدو، ولذا آثر الانتظار لما تسفر عنه الأقدار، ورفض الدخول في حروب جديدة حتى لا تتفرق قواه في أماكن بعيدة.

ومن الطبيعي والحال على هذا المنوال أن يتابع الفرنسيون بكل دقة تلك التحركات للشيخ الأمين، ويظهر هذا بشكل جلي في البرقيات التي أرسلها القادة الفرنسيون. ولكن رغم كل هذا وقف الفرنسيون على الحياد في ذلك الصراع الدائر بين الشيخ الأمين وعمر سعدا، ولعل هذه السياسة الفرنسية الحيادية إنما ترجع إلى أكثر من سبب، فمن جهة ليست القوة الفرنسية في هذه الظروف على استعداد للدخول في حرب مع الشيخ الأمين، ولأن فرنسا تريد أن تصفي هذه القيادات الشعبية في حروبها مع بعضها حتى تضعف شوكتها، وبالتالي تسهل السيطرة عليها بأقل تكاليف ممكنة.

كانت هذه هي نظرة الفرنسيين، وهي نظرة قائمة على السياسة الأوروبية بشكل عام، وهى ترك القيادات المحلية والشعبية تتصارع فيما بينها حتى تجد الفرص المناسبة للقضاء على هذه الوحدات السياسية التي كان من

المفروض أن تتكاتف وتقف صفا واحدا ضد عدو دينها، والذي لا يمكن أن يوثق به مهما حاول إظهار العطف عليها، وتلك من المحن التي وقع فيها الأفارقة بشكل عام في كل مراحل مقاومة التوسع الأوروبي في القارة.

وانتظر الفرنسيون وهم يرقبون بكل حيطة وحذر تحركات الأمين وجيشه، والمعارك التي يخوضها. ولكن لما أظهرت قوات الأمين تفوقا على عمر سعدا استنجد الأمير بالفرنسيين بعد أن هرب إلى دمجا، ووجد الفرنسيون أنفسهم في موقف حرج بعد أن وردت الأخبار التي تضمنت تخلي أغلبية سكان السيسبي عن مقاطعتهم وانضمامهم إلى قوات الشيخ الأمين الذي كان ينوي البقاء في بوندو، وأن يصبح حاكما عليها، وأرسل للفرنسيين بعد هذه الأحداث يؤكد إخلاصه لهم، وأنه ما زال يبقي بينه وبينهم على أواصر المحبة والصداقة. كتب الشيخ الأمين عددا من الرسائل إلى القيادات الفرنسية يوضح الهدف من التغيرات التي حدثت، كما طلب في إحدى مراسلاته إلى الفرنسيين تلبية رغبته في أن يصبح قائدا لبوندو محل السيسبي الذين دمروا المنطقة من قبل، وأعرب عن ازدهار المنطقة أثناء حكمه، وأنه سيبذل ما في وسعه لتطوير التجارة الفرنسية [1].

ثالثا: صراع الأمين ضد الفرنسيين

بالرغم من كل التصريحات والمراسلات التي وجهها الأمين للفرنسيين معربا مرة عن استمرار التحالف، وتارة أخرى على إبقاء الصداقة، ومرة ثالثة طلب تعيينه حاكما لبوندو، ورغم أن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل إلا أن الشيخ الأمين لم يحاول استعداء الفرنسيين لأنه يحاول بناء الدولة أساسا من الداخل بعد ازدياد عدد الأتباع، وبعد أن يكون جيشه الأساسي قد قام بحملة ضد الفرنسيين أنفسهم، وكان جيشه حسب تقديرات الفرنسيين قد وصل في شمال بوندو حوالي سبعة آلاف مقاتل من بين السراكولا والفولبى والتورودوب من بوندا وفوتاتور [1].

لكن فرنسا بدأت مرحلة جديدة سادها الشك في تصرفات الأمين، وخشيت أن يزداد نفوذه فيصبح كقطعة النار التي أهمل إطفاؤها فصارت بداية شعلة يصعب إطفاؤها أو القضاء عليها. ومن هنا بدأت سياسة فرنسا العدائية نحو الشيخ الأمين، تلك السياسة التي ستكون بداية النهاية لدولة

الشيخ محمد الأمين.

وفي بداية الأمر قام الشيخ الأمين الذي أعلن أنه خليفة الحاج عمر بطلب دعم وتأييد من القوى المحلية، وأخذ يغير من خططه، فقام باحتلال القرى حول المركز الفرنسي في باكل، كما قام بحرق القرى التي توالي الفرنسيين ليكونوا عبرة لجيرانهم، وإلى جانب هذا فقد قضى على قوة فرنسية بقيادة جولي، وحاصر مدينة باكل [2].

أرسل الأمين مبعوثين إلى كل القرى المجاورة لكي يحثهم على التحرك ضد الفرنسيين، وكان يرسل إليهم بصفة مستمرة كل خططه الحربية، وأنباء انتصاراته مؤكدا أنه لن يتوقف عن الجهاد إلا بعد القضاء على الوجود الفرنسي في بلاده [1].

وبينما كان الأمين يواصل حملاته ضد الوثنيين، وضد بعض القرى التابعة للفرنسيين أغارت القوات الفرنسية على قريته جونديورو بقيادة الكابتن فيرات (Ferrat)، والضابط رودوت (Rodot)، وذلك في 13 مارس 1886، وقبض الفرنسيون على أسرته وأخذوها إلى مادينا (Madina). وكان من بين الأسرى زوجته موسو التي رافقته في رحلة الحج إلى مكة. وقد عامل الفرنسيون أسرة الشيخ بالرفق واللين [2].

وكان رد الأمين على هذه الاستفزازات الفرنسية أن قام في أبريل من العام نفسه باحتلال منطقة جوى (Guoy)، وكثف هجماته على المراكز الفرنسية في المنطقة [3].

من هنا صار موقف الفرنسيين صعبا، وأصبح من الواضح أنهم لن يستطيعوا الحفاظ على أوضاعهم في سانجامبيا إلا بعد القضاء على الشيخ الأمين الذي أعلن صراحة أنه عدو الفرنسيين، وأنه يخطط للقضاء عليهم. وعلى هذا ستكون المواجهة العسكرية هي الفيصل في ذلك الصراع الدائر بين جماعات المسلمين والقوات الفرنسية التي ترغب في تثبيت نفوذها في هذه المناطق. وإذا ما استعرضنا قوة الجانبين المتحاربين نجد أن جيش الشيخ الأمين يتكون أساسا من مجموعة المتطوعين المدنيين والأتباع المخلصين الذين توافدوا عليه من مختلف أقاليم الدولة، ولذا فإن قوة الجيش لا تكمن في القوات النظامية بقدر هذه الأعداد من المتطوعين الذين وهبوا حياتهم ودماءهم رخيصة لنجدة الإسلام والمسلمين.

يضاف إلى ذلك أن الشيخ الأمين قد استفاد من بعض الأفارقة الذين كانوا يعملون مع الفرنسيين إما كبحارة وإما كجنود، أو يقودون السيارات وغيرها. وكان انضمام هذه الفئات إلى جانب صفوف الأمين قد سهّل له معرفة الكثير عن خطط العدو وتكتيكاته العسكرية. ولعل سر انضمام هذه الجماعات هو الحفاظ على قوميتهم وثقافتهم ودينهم الإسلامي، ورغبة في مقاومة قوى البغي والعدوان على أمل الشهادة في سبيل نصرة الدين وإحياء رايات الإسلام التي ستتعرض لتلك الموجة الصليبية على أرض القارة الأفريقية.

لم يعرف جيش الأمين التنظيم أو التجنيد الإجباري، بل كان كل قادر على العمل من الرجال يستطيع الانضمام إلى الجيش، ولم يعرف تنظيم الأمين التجنيد كحرفة، ولم يمارس هو أو رجاله الحرب في جيش على النظام الأوروبي. يضاف إلى ذلك أن كميات الأسلحة لديه كانت محدودة، ولم يكن من السهل الحصول على السلاح من التجار الذين يعملون في مدينة سانت لويس، ويقال إنه كان يحصل على بعض الأسلحة من المصانع البريطانية في جامبيا عن طريق بعض العناصر الوطنية من السراكولا في المستعمرة [1].

هذه صورة عامة وبسيطة لجيش إسلامي فرض عليه القتال أمام جيوش أوروبية مسلحة بأحدث ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الحرب. فلقد كان الجيش الفرنسي يضم ضباطا من البحرية، ومن القوة الدائمة للجنرال لويس فيدهرب والتي كانت قد تعودت على هذه الظروف المحلية، وتأقلمت على الجو هناك، هذا بالإضافة إلى القوات الوطنية والمحلية التي دخلت في تحالف مع الفرنسيين ضد المسلمين حيث كان الأمين لا يحارب الفرنسيين فحسب، بل كان يحارب أيضا القوى الوطنية التي كانت تخشى نفوذه وسيطرته، فراحت تتحالف ضده، وتحارب إلى جانب أعداء الدين، وترفض السماح له بالمرور بأراضيها لغزو بلاد الأوثان. ولعل هذا التحالف الوطني مع الفرنسيين كان سببا في معرفة الكثير عن المنطقة، والصمود طويلا أمام جيش المسلمين. وهذه نكسة من النكسات التي حفت بالمسلمين في هذه المنطقة، والتي تحتاج إلى تكاتف كل الجهود من أجل الوقوف ضد المسيحيين الذين كانوا يهدفون إلى هدم الحضارة الإسلامية. من أجل كل

هذا كانت حروب الشيخ الأمين تنتهي في صالح الفرنسيين بسبب ما يلقونه من دعم بشري من سكان المنطقة. ولم يحقق الشيخ انتصاراته إلا في حاله الهجوم المفاجئ الخاطف. وفي بعض الأحيان اتخذ الصراع شكل حرب أهلية لأن معظم قوات الجانبين كانت من الأهالي في المنطقة.

ومع بداية الصراع، والدخول في مواجهة مع الفرنسيين، بدأت فرنسا تدعم وجودها في مراكزها في وادي السنغال، وخصوصا في منطقة باكل التي تعرضت مرارا لهجمات الشيخ الأمين.

حاولت فرنسا أيضا الاستفادة من الأمير عبد البابكر (Abdul Bubakar) وذلك بتحريضه على القيام بعمل عسكري ضد الأمين، وبدأت المناوشات الأولى في 14 مارس في منطقة كونجويل (Kounguel)، واستطاعت قوات الأمين شن حملات على منطقة بوندو، واستولت على بعض القرى هناك. وهاجم الأمين بجيش بلغ عدد أفراده حوالي أربعة آلاف مجاهد، لكنه سحب حوالي ألف وخمسمائة منهم لمواجهة القوات الفرنسية في باكل. ونجح الأمين في الوصول إلى كونجويل التي تبعد حوالي ستة كيلومترات عن باكل التي وصل إليها الفرنسيون بعد استيلائهم على مدينة جونديورو، ووصل الشيخ بقواته في وقت مناسب بعد أن وصلته تقارير المخابرات والجواسيس عن خطط الفرنسيين وتحركاتهم. واتهم الفرنسيون المترجم ألفا سيجا (Alpha Sega) الذي كان يتعاون مع الأمين، وكان يزوده باستمرار بخطط الفرنسيين، كما عين مرشدين غير حقيقيين لتضليل القوات الفرنسية عن الأهداف التي يريدون ضربها لدى السراكولا. وعندما اكتشف الفرنسيون هذه الحقائق أطلقوا النار عليه في ميدان عام في السادس من أبريل 1886[1].

وفي معركة كونجويل بلغت قوات الأمين 1500 رجل بينما كانت القوات الفرنسية حوالي 6000 مقاتل، وهاجم الأمين الفرنسيين وأخذهم على غرة واقترب من مكان المعركة حتى صار على بعد أربعين ياردة قبل أن يدركه الفرنسيون ودخل في مواجهة معهم. ودارت معركة بدأت في الخامسة صباحا. وعلى مدى أربع ساعات من المواجهة العسكرية والالتحام المباشر بين الأمين وأعدائه استطاع المسلمون الإجهاز على قوات المشركين ومن يساندها، ولم تستطع القوات الفرنسية أن تفعل شيئا أكثر من الهروب

بأرواحها مخلفة وراءها الأسلاب والقتلى والجرحى، ولم يتحسن الموقف لصالحهم حتى بعد انضمام الكابتن لي فرانك (Le Franc). ولقد فقد الفرنسيون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر بالإضافة إلى أحد المدافع وقاربين، وقتل منهم حوالي عشرة جنود وجرح ستة وثلاثون. وقطع رجال الأمين خطوط التلغراف بين باكل وماتام (Matam)، وحاصرت قوات الأمين باكل ذاتها [2].

وبالطبع استفاد الأمين من هذا الانتصار في كونجويل (Kounguel) حيث تضاعف عدد أتباعه وتزايد إقبال الناس عليه كلما تطايرت أخبار النصر على الفرنسيين. وظل الأمين طوال شهر مارس يعمل على تدعيم قواته، وتجميع معداته حول باكل التي فرض عليها الحصار، وقرر الاستيلاء عليها. وإزاء هذا الموقف المتأزم وتلك الكارثة التي حلت بالفرنسيين اضطر فري إلى التعامل مع هذا الموقف العنيد، فأوقف العمليات العسكرية ضد مجاهد آخر يدعى ساموري توري حتى يتفرغ لقتال الأمين. وفعلا تحولت القوات الفرنسية من جبهة ساموري الإسلامية إلى جبهة أخرى إسلامية هي جبهة الشيخ الأمين. ولو كان هناك تنسيق بين قوات المسلمين في غرب أفريقيا لأربكت هذه القوى جهود الفرنسيين، وقضت على سيطرتهم، لكن عدم التنسيق جعل الفرنسيين يوقفون القتال على جبهة للقضاء على جبهة أخرى، ثم يعودون إلى الجبهة السابقة، وبالتالي نجح الفرنسيون في القضاء على الزعامات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

معركة باكل:

بعد أن جمع فري قواته بدأت معركة باكل في أواخر أبريل 1886 بالتحام مع قوات الشيخ الأمين عند قرية جورى مبال (Guery Mpale) في المناطق المجاورة لباكل، وتمكن الفرنسيون من إنزال الهزيمة بقوات الشيخ الأمين، لكن سكان القرى المجاورة، وخصوصا سكان قرية مودي نكاني، تحركوا نحو قوات الأمين وانضموا إليه، وبالتالي بدأ الشيخ يعيد تنظيم قواته التي قسمها إلى ثلاث مجموعات وتولى القيادة العليا بنفسه. وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من باكل جمع الشيخ قواته في تابو (Tuabo)، وتقدم بها نحو القوات الفرنسية، واستطاعت هذه القوات الإسلامية إلحاق الهزيمة

بالفرنسيين، ودخل الشيخ الأمين باكل، وصارت المواجهة بين القوات الفرنسية وقوات الأمين بمثابة حرب أهلية حيث دار القتال من شارع إلى شارع، وصار من الصعب التمييز بين قوات الجانبين وسط تلك الفوضى وهذه الاضطرابات التي لم تشهدها المدينة من قبل، فمات عدد كبير من كلا الجانبين، وفي النهاية اضطر الأمين إلى سحب قواته خارج المدينة.

وطبقا للتقارير الفرنسية عن الموقف داخل مدينة باكل فقد الأمين ما لا يقل عن 300 قتيل، كما فقد الفرنسيون 25 قتيلا، و100 جريح. ومن الصعب الأخذ بصحة هذا التقرير لأن الجانبين التحما وصار من الصعب تحديد هوية المتحاربين، أو الجهات التي يحاربون من أجلها. وبعد أن انسحب الأمين بقواته خارج المدينة استقر في تابو وبعض القرى المجاورة حول باكل، ونجح في إغلاق الطرق المؤدية إلى المدينة بالإضافة إلى تحطيم خطوط التلغراف بين باكل وكايز[1].

بعد المعركة خشيت القوات الفرنسية أن يعاود الأمين الهجوم من جديد لذا فإنهم أعادوا تنظيم قواتهم الدفاعية، كما طالب فري بضم القوات التي كانت تحارب ضد الإمام ساموري، وأعلن حالة الطوارئ، وتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية. لكن الأمين لم يعاود الهجوم كما توقع الفرنسيون لأنه أدرك عدم جدوى تحقيق النصر على تلك القوات النظامية التي تحمل أسلحة متطورة، وبدأ الشيخ الأمين ينتهج أسلوب حرب العصابات على نطاق واسع ضد الوجود الفرنسي، وضد مواقع الفرنسيين، ووسع نطاق الهجوم على كل من باكل وكايز. ولما اشتدت هجمات الأمين الخاطفة على باكل قرر فري القيام بحملة ضد هذا الشيخ في جيوديماكا [2].

بدأت هذه الحرب الشاملة بمنتصف أبريل 1886، واستمرت حتى يوم 24 مايو دون أن يحقق أحد الطرفين نصرا على الآخر. وعانت القوات الفرنسية كثيرا لأنها عجزت عن التكيف مع الأوضاع المناخية السائدة، كما أنها لم تستطع مجاراة حرب العصابات التي أعلنها الأمين عليها، ونجح فيها إلى حد كبير، وكلما مرت الأيام ازداد يأس الفرنسيين، وازداد ضيق فري، وأخيرا اتبع القائد الفرنسي سياسة الحرق والإبادة، وكان رد الأمين عليه بالأسلوب نفسه حيث حرق مراكزهم في سونوديبو، وكان واضحا أن استخدام هذا الأسلوب من الحرق والإبادة مدمر وفتاك، وبسرعة حذر

حاكم السنغال الفرنسي القائد فري من استخدام هذا الأسلوب الوحشي المدمر.[3]

ومع حلول شهر يونيه أصبح واضحا أن الفرنسيين قد فقدوا السيطرة على الموقف تماما، حيث لم يبق من قوة المشاة البالغ عددها مائة رجل سوى أربعة رجال، كما أمكن تدمير كل المدافع، وعلاوة على ذلك فإن قوة الاستطلاع البالغة ألف رجل لم يصل منها سوى النصف فقط، أما بقية هذه القوة فقد ضاعت ما بين قتيل أو جريح[1].

وظهرت قوة الأمين من خلال الاشتباكات، ومن خلال أسلوب حرب العصابات التي دوّخت الفرنسيين، وألحقت بهم الهزائم المتتالية. وكان الحماس الديني يدفع الرجال نحو الحرب بكل عزم وقوة على أساس أنهم يدافعون عن قوميتهم التي انهارت، وعن وطنهم الذي يتعرض للغزو الفرنسي، وعن دينهم الذي بدأ الأوروبيون يدنسونه. وأمام عنف المقاومة الإسلامية اضطر الفرنسيون إلى الانسحاب في الفترة من يونيه حتى أكتوبر مخلفين وراءهم الدمار والخراب.

وطوال هذه الفترة صار الأمين حرا، وابتعد عن الأخطار التي تهدد كيان دولته، فاستغل هذه الفترة في استرداد الأراضي التي فقدها أثناء الصراع مع الفرنسيين، كما نظم قواته من جديد، وأقام مركزا في مدينة ديانا (Diana) في منطقة أعالي جامبيا. ومن هذا المركز الجديد بدأ الشيخ يرسل التلاميذ والطلاب إلى مختلف المناطق المجاورة لنشر الدعوة الإسلامية، وتحويل السكان الوثنيين إلى الدين الحنيف، وقبل سكان مدن بادون (Badon)، ونيوكولو (Niocolo) الدعوة، وامتد نفوذ الشيخ حتى منطقة باماكو التي قبلت الدخول في دعوته.

وفي شهر يونيه هاجم الشيخ الأمين المركز الفرنسي في سونوديبو وأحرقه، وتوجه بعد ذلك بقوة تبلغ ثلاثة آلاف مقاتل نحو بوندو حيث دخل عاصمتها وقتل إمامها الذي وقف له بالمرصاد منذ إعلانه الجهاد، وبمقتل عمر سعدا عدوه اللدود يكون الشيخ قد حقق نصرا كبيرا على هذا الرجل الذي طالما تحالف مع الفرنسيين ضده، وطالما عرقل تحركاته داخل بوندو، وضيّع عليه فرصة الوصول إلى جامون، وتحويل سكانها الوثنيين إلى الدين الإسلامي. وكل هذا يوضح بكل جلاء اتساع نفوذ الأمين خلال الشهور التي

انسحب فيها الفرنسيون، وكانت هذه فرصة لتصفية حساباته القديمة، وتحقيق الأحلام التي عجز عن تحقيقها في ظل التحالف بين الفرنسيين والقوى المحلية، وتوسع الشيخ في منطقة سانجامبيا ووسع من إمبراطوريته[1].

لما ضعف مركز الفرنسيين قررت الحكومة الفرنسية اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية مصالحها وتجارتها في منطقة سانجامبيا، ووجدت أنه لا بد من التعامل مع الشيخ الأمين بطريقة أكثر إيجابية. فعينت الكولونيل جاليني قائدا أعلى للقوات الفرنسية محل فري. ووصل جالينى إلى كايز (Kayes) في أكتوير عام 1886 ليبدأ مهام منصبه الجديد، وليحقق هدف الفرنسيين الأكبر في القضاء على الشيخ الأمين [2].

كان جالينى قد خطط لهزيمة الأمين وقواته باستخدام الوسائل الدبلوماسية والعسكرية. ومن ثم كانت خطة جالينى الاستعانة بقوات السلطان أحمدو شيخو لمحاربة الأمين، ونجح جالينى في هذه الخطة الماكرة باستخدام قوات المسلمين ضد بعضهم البعض، وبالفعل بدأت حملات السلطان أحمدو ضد الشيخ الأمين وابنه سويبو (Soybou). وكان من الأجدر بالسلطان أحمدو أن يتحالف مع الأمين قائد المسلمين لطرد المسيحيين من ديار المؤمنين. وهكذا نجد أن أسلوب الفرنسيين بالاستعانة بالقوى الوطنية كان من أسباب القضاء على المقاومة الإسلامية [3].

وفي أواخر فبراير عام 1887 استطاعت قوات الشيخ أحمدو محاصرة مدينة جورى حيث كان سويبو بن الشيخ الأمين يقوم بعملياته العسكرية، وتمكنت قوات أحمدو من هزيمة قوات سويبو في أبريل 1887، وبهذه الطريقة من حصار المسلمين التابعين للشيخ الأمين بقوات وطنية تابعة للشيخ أحمدو استطاع جالينى أن يغير الموقف لصالح الفرنسيين. وبعد أن هيأ جالينى الموقف لصالحه بضرب المسلمين بعضهم ببعض قام جالينى بإنشاء مركز له في أروندو (Arondu) عند التقاء نهر السنغال مع نهر فاليم [1] (Faleme). كما أقام حاجزا من المراكز الفرنسية على طول نهر السنغال، وذلك لكي يمنع شعب السراكولا من الانضمام إلى جيش الشيخ الأمين في سانجامبيا. وبهذه الطريقة نجح جالينى في تقسيم قوات الشيخ الأمين إلى قسمين كل منهما محاصر بقوات مشتركة من الفرنسيين وقوات الشيخ أحمدو التي

أحست أن الأمين خطر عليها قبل أن يكون خطرا على الفرنسيين، ومن هنا جاء سر تحالف أحمدو مع الفرنسيين ضده.

كانت هذه الخطة الفرنسية في تجزئة جيش الشيخ الأمين وفصل قواته وإقامة مراكز حصينة تمنع التحام جيش الأمين ببقية قواته، وفي الوقت نفسه استخدام جيش وطني قوي هو جيش الشيخ أحمدو، كل هذا كان من العوامل التي ساعدت عل ضعف قدرات هذا المناضل القومي الإسلامي، فبعد ثلاثة أشهر من النضال والكفاح، ووسط هذه الظروف الصعبة اضطر ابنه إلى الاستسلام في مدينة جورى بعد أن حاول الانضمام إلى جيش والده الرئيس في ديانا، ولكن قبض عليه أثناء عبور النهر عند قرية ديكوكوري (Dikokori) على بعد مسافة قصيرة من معسكر القائد الفرنسي جالينى في أروندو، وتمت محاكمة هذا البطل سويبو وأعدمه الفرنسيون، فكان إعدامه واستسلامه ضربة كبرى للمقاومة الإسلامية التي يقودها الشيخ محمد الأمين [2].

لقد كانت عملية القضاء على سويبو بالتعاون مع قوات التوكولور ذات أهمية كبرى للفرنسيين حيث أعطتهم هذه العملية حرية التركيز على الحملات في سانجامبيا، في الوقت الذي كان الشيخ محمد الأمين يقيم في قواعده في ديانا في أعالي نهر جامبيا.

رابعا: القضاء على مقاومة الأمين:

قرر جالينى في ديسمبر عام 1886 القيام بحملة ضد الأمين. وبدأ من قاعدته في أروندو (Arondu) ينظم قواته في ثلاث فرق تحركت اثنتان منها مباشرة إلى قواعد الأمين في ديانا. وكان جالينى قائدا لإحدى هاتين الفرقتين. أما الفرقة الثالثة فكانت مهمتها حفظ الشؤون الأمنية في القاعدة بعد رحيل الفرقتين. وفي الثاني عشر من ديسمبر 1886 تحركت الفرقتان إلى ديانا والتحمت إحدى هاتين الفرقتين مع قوات الشيخ الأمين في معركة ساروندیان (Saroundian)، ولكن قبل أن يصل الفرنسيون إلى ديانا كان الشيخ الأمين قد أجلى قواته عنها. ورغم هذا فقد أطلق جالينى النار على المدينة، وأشعل فيها النيران، وانسحب الشيخ الأمين إلى أعماق جامبيا، وعادت القوات الفرنسية إلى قواعدها في يناير 1887 [1].

ومن الواضح أن جالينى قد كسب المعركة لكنه لم يتخلص من الشيخ الأمين الذي لا يزال يسيطر على قوة كبيرة في سانجامبيا خصوصا وأنه انتهز فرصة الجو الحار في يونيه ويوليه وأغسطس فأعاد تنظيم قواته لكي يواصل القتال ضد الفرنسيين، وصار لدى الشيخ جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل [2].

وعندما عاد جالينى إلى قواعده في كايز انتهز الأمين الفرصة واستعاد الأرض التي ضاعت منه، وجند رجالا آخرين للوقوف أمام الفرنسيين، ولذا فإنه بدأ بتوسيع نفوذه، واضطر جالينى مرة ثانية إلى إعداد حملات ضد الشيخ الأمين الذي كان يتجنب اللقاء المباشر معتمدا كل الاعتماد على حرب العصابات. تلك الحرب التي أجبرت الفرنسيين على الاستعانة بمتطوعين من مختلف الأقاليم. وعن طريق استخدام هذه القوات مع تركيز الحملات المباشرة ضد أتباعه نجحت القوات الفرنسية في القضاء على الأمين في ديسمبر عام 1887.

ففي هذا الشهر كانت المعركة الأخيرة في توباكوتا (Tubakouta)، ودافع الأمين بكل ما أوتي من قوة، واستبسل في الدفاع عن حصونه ومواقعه، وصمد حتى النهاية رغم إغراء الفرنسيين إياه. وأخيرا انسحب مع بعض قواته، بعد أن تخلى عدد كبير من الاتباع عنه، واستقر في مدينة تمبكت، ورفض جالينى الطلب الفرنسي بالتفاوض معه في يوليه عام 1887. وأرسل إليه قوة بقيادة الكابتن فورتن (Forten). هاجمت القوات الفرنسية تمبكت، لكن تمكن الشيخ من الهرب، فتعقبه الفرنسيون وهزموه في نجوجو سوكوتا (Ngogo-Soukota)، وجرح الأمين في فخذه بعد الهجوم العسكري عليه في التاسع من ديسمبر، وأخذ أسيرا لكنه مات في الطريق إلى تمبكت في 12 ديسمبر 1887. وقطعت رأسه وأرسلت إلى الكابتن فورتن لإثبات أنه مات[1].

وهكذا كانت هزيمة الشيخ الأمين ونهايته بهذا الشكل البطولي بعد أن أدى الواجب، وحمل الأمانة، وجاهد في سبيل الله طوال عامين أو يزيد، ووقف أمام الفرنسيين بكل قواهم، ورغم أنه مات في سبيل دعوته إلا أن وفاته لم تكن نهاية المطاف، فحركات الجهاد والتحرر استمرت، والمقاومة اشتدت في مناطق أخرى من غرب أفريقيا، لكن الجديد في جهاد الشيخ محمد الأمين أنه جهاد كان قصير الأمد. جهاد كان ضد الوثنيين،

والمسيحيين، بل ضد المسلمين الذين ساندهم الفرنسيون، أي أنه جهاد متعدد الجوانب وضد أكثر من قوة، ولو وقف الفرنسيون وحدهم من دون الاستعانة بالقوى الوطنية وبالمتطوعين الأفارقة، لاستطاع الحاج الأمين أن يحقق المزيد من الانتصارات خصوصا وأن روح رجاله المعنوية كانت عالية، وكان الأمل يحدوهم في إعادة بناء مجد السراكولا القديم، والاستشهاد في سبيل الله والوطن. إن حرب العصابات التي خاضها ضد الفرنسيين لعمل جليل وأسلوب على مستوى راق من التخطيط والدبلوماسية كلف فرنسا الكثير وجعلها توقف القتال في ميادين أخرى حتى تتفرغ لهذا العدو اللدود، وحتى بعد وصول قواتها، من حرب ساموري، عجز الفرنسيون عن إيقاف نشاط الرجل، ولم تحقق فرنسا انتصاراتها عليه بالرغم من التفوق العسكري والتنظيم الحربي إلا بعد الاستعانة بأقوى قوة إسلامية في المنطقة ألا وهي قوة التوكولور والشيخ أحمدو، تلك القوة التي هزمت ابنه سويبو، وعزلت الرجل عن بقية قواته لدى ابنه، ناهيك عن استخدام أشد وسائل العنف والقمع والحرق والإبادة. كما أننا لا يمكن أن ننسى الدور الذي لعبه المتطوعون الوطنيون الذين كانوا يمدون الفرنسيين بكل المعلومات عن الشيخ محمد الأمين.

تكشف هذه المقاومة الإسلامية للشيخ الأمين نمطا من أنماط مقاومة المسلمين للاستعمار الأوروبي، ورغم قصر مدة المقاومة إلا أن الأحداث التي دارت خلال هذه الفترة القصيرة كانت فعالة ومؤثرة، بل مدمرة لقوة الفرنسيين، كما أن الشيخ أذاق الوثنيين الهوان ولم تلن عزيمته رغم حقد الحاقدين، وعرقلة الحكام الوطنيين لحملاته على جامون، ولم يسكت على هؤلاء الأعداء إلا بعد أن هزمهم وقتل عدوه عمر سعدا ذلك الرجل الذي تواطأ مع العدو ضد المسلمين، ووقف له بالمرصاد في كل المحاولات التي سعى إليها للمرور بأرضه،-

بل اعتدى على قواته أثناء مرورها، ومع كل هذا لم يتوقف عن جهاده حتى حقق كل ما يريد. ولولا التآمر ضده من كل القوى لكانت حركته أكثر فاعلية ولامتد بها الزمان. ويكفى هذا الرجل أنه رغم كل هذه المعوقات صمد حتى سقط صريعا على أرض المعركة ليسجل صورة أخرى من صور الجهاد الإسلامي ضد قوى البغي والتوسع الأوروبي.

لم يكن موت هؤلاء الزعماء المسلمين نهاية المطاف بالنسبة للاستعمار الأوروبي، فلقد ظلت الروح الوطنية تستلهم من هذه الشخصيات مثلها، ولم يتوقف النضال الوطني بين المسلمين حتى حمل المستعمر عصاه ورحل في النصف الثاني من القرن العشرين. وتلك واحدة من حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي إبان عصر الإمبريالية والتوسع في القارة.